ابن رشد والفلسفة الاندلسية

لحضرة دوبتري افندي خلاط

قال الباحث المدقق والفيلسوف المحقق ارنست رنان الفرنسوي في مقدمة كتابهِ عن ابن رشد ومذهبهِ "ان العلامة التي يعرف بها الجيل التاسع عشر في خوضهِ في المباحث العقلية غير متبع الطريقة المذهبية بل التاريخية وان الكاتب الناقد من كتبهِ لا ينقاد في انتقادهِ لامر راسخ في ذهنهِ منذ نعومة اظفارهِ بل يطلق لتفكر عنان حريتهِ غير مقيَّد معرضًا لابناء جيلهِ معاني من تقدمهم من بني الانسان على حالتها من الحسن والصفة التي برزت بها مبينًا لهم الطرق التي ظنوا انهم وصلوا بها الى حل العقد العقلية والجيل التاسع عشر عرف اكثر من سواهُ ان الفلسفة لا تواصل الاَّ من شغف بها وعرف حقيقتها من ألسنة خدمتها الفلاسفة كما ان ملكة الكتابة للانسان لا تحصل الاَّ بالمران في بنات اقلام الكتبة"

ولا ريب ان الفلسفة العربية حلقة من سلسلة تاريخ العقل البشري وقد كان لها شأن عظيم في الازمنة الخالية فكانت موصلةً لمن بعدها من الافرنج فلسفة من قبلها من اليونان فان لم يقرأها الاوروبيون في الوقت الحاضر سوى كطالبي تاريخ لا فلسفة فذلك لانهم سبقوها بمراحل واما نحن الشرقيين فلا غنى لنا عنها تاريخًا وفلسفة

فاذا أجلنا النظر بوجهها التاريخي تبسم لنا عن ثغر وضَّاح قائل بلسان حالهِ ايها الحميد العربي اراك تعزُّني بالذكر وتذكرني بالخبر متباهيًا بالاثر المأثور عني متعاجبًا بغنى الفضل المذخور مني فما بالي اراك فقيرًا ولا تلتمس ذخيرتي ومتعدمًا ولا تستمدُّ معونتي قد بليت بالفقر فاسرع الى الثراء وعرفت الداء فالتمس الدواء وسل عنهُ الاطباء سل ابن سينا سل الرازي سل ابن رشد فعندهم ادوية شافية برشفها الصحة والعافية — فلاسفة انطلقوا في سبيل العلم مجرِّدين سيف الفكر حرًّا من قيدهِ ومشهرًا من غمدهِ فما أغمدت لهم شهرة بل تقيدت حرية آرائهم في سجل التاريخ لتكون حرزًا حريزًا وكنزًا ثمينًا بتوارثة الآباء عن الابناء. ولو اقتدى بحرية افكارهم في المباحث علماء العرب التالون ونزعوا من افكارهم الوهم بأن البحث في علوم الاوائل مؤدٍّ الى الزندقة لما كنَّا رأينا هلال التمدن العربي آفلاً قبل ان يصير بدرًا بل كنَّا رأينا نورهُ مشرقًا على اقطار العالم قائمًا مقام التمدن الاوروبي الحالي

الاَّ ان هؤلاء لم يكتفوا بمعارضة العلم واهلهِ بل سلكوا سبلاً عديدة لاذيتهِ واحرقوا غصص الفلسفة النضير بنار الحروب التي اوقدوها لنصرة مذاهبهم فكانت عواقبها وخيمة على العلم لان

ملوك العرب وفتاتهم كانت موقدة نار القرى لضيف الفلسفة ورافعة رايات العلم على صروح العواصم العربية فكانت الاندلس تروي الخيول من منهل المباحث الجليلة التي اخذت مجراها الرائق في ظل الخليفة العظيم الشأن الحكم الثاني. وكان هذا الخليفة الجليل محبًا للعلم والعلماء مقربًا من الظرفاء والادباء مطلقًا عنان الفكر للتلامذة الاذكياء باحثًا عن الكتب النافعة في سائر الامصار جامعًا شتات العلماء من كافة الاقطار غير ضانٍّ بالنفيس في سبيل العلم والتمدن. ومن المتقول عنه انه بعث بالف دينار من الذهب الخالص الى ابي الفرج الاصفهاني ثمن النسخة الاولى من كتابه الجامع الشهير بالاغاني وجرى تداول الكتاب المذكور بين طلبة العلم في الاندلس قبل شيوعه في العراق مهد نشأته. وقد اقام الحكم عمالاً من طرفه في مصر والاسكندرية ودمشق وبغداد منوطًا بهم امر البحث عن كل تأليف في علوم الاوائل والاواخر فيقدم له الكتاب مهما كان غاليًا صداقته. وذكر المقري وابن الابار ان مكتبته كانت تحوي اربعة واربعين مجلدًا من فهارس الكتب الموجودة بها. وقال آخرون ان مجلدات مكتبته بلغت اربع مئة الف عدًا ولم يجمعها للزخرفة والتباهي الشهرة بحب العلم بل عن هيام حقيقي بالادب فانه اطلع على الكثير منها وكان يخطُّ على القرطاس اسم المؤلف ولقبه ووطنه وسنة ولادته ووفاته والنوادر المأثورة عنه

اما اندفاع عرب الاندلس وراء المباحث العلمية الحرة فكان سابقًا زمن الحكم فمنذ ثبتت اقدامهم في تلك الرياض الانيقة واطأنت خواطرهم في البلاد وعانقت نفوسهم الطموح الى الفتوح طفقت غرائزهم الميالة الى الحركة والنشاط تقود افكارهم في شعب المسائل الفلسفية لما بها من اللذة والفائدة. واشترك نصارى الاندلس ويهودها في هذه المباحث فنشأ عنها الائتلاف العام والاتناس التام وامست تلك البقاع النضيرة زاهرة بائتلاف سكانها زاهية بحلم اهليها وامتزاج شعوبها وغدت اللغة العربية لغة المسلمين واليهود والنصارى فكانوا يتنافسون بالشعر ويفتخرون بالفلسفة ويتسابقون في حلبة التمدن لخدمة الجنس البشري وامست جوامع قرطبة مشرقة بانوار العلم على طلبة زوايا الدنيا

ومن نكد الحظ ان طوالع البشر قد تتوقف على هوى الافراد وذلك سرٌّ في الطبيعة تقصر عن ادراكه الافهام فقد دكَّ ما بناه الحكم احد حجَّاب بنيه واحمه الحاجب المنصور. فهذا سوَّلت له نفسه اغتصاب الملك من هشام ابن الحكم لما آنس من عجزه وقلة حزمه ورام ان يجذب لنفسه اشياعًا ضد الخليفة فلم يرَ واسطة اقرب تناولاً لغايته واسطى قوة على العامة من دس الدسائس ان الحكم وابنه لم يبنوا دعائم العلم الاَّ لينقضوا اساس الدين وان الكتب المذخورة في مكتبة الخليفة

ليست سوى معاول للهدم وكلها صادرة عن افكار المعطلين. ولما نال مأربه بهذه الاراجيف احرق بعض الكتب العلمية جهارًا في رحاب قرطبة وشوارعها وطمر البعض في آبار القصر الملكي ليخفيها عن العيون ولم يستبق سوى كتب اللغة واهل الكلام. وقد ذكر المؤرخ سعيد الطليطلي هذه الحادثة فقال "وشاعت الاقوال وقتئذٍ ان المنصور رام بما فعل استمالة الخواطر اليه وبغية ان تسأم انفس المسلمين من هشام بتعطيل ذكر ابيه الحكم"

فقيام الحاجب المنصور بأمر التعصب الديني في الاندلس التي الفرقة بين طوائفها وبدّل انسها بالوحشة فآل تفرّق كلمة اهليها الى ضياعها من ملك المغرب لان نصاراها المستعربين اضطرّوا الى الاستجارة بالافرنج مخافة ان تضرب عليهم الذلة والمسكنة بعد هجرة الفلسفة. فاليت عقارب النهيمة ماتت قبل ان دبّت على اسماء شريفة خالدة بآثارها المجيدة كالمأمون والحكم اللذين كان جزاؤهما من المتمدن جزاء سنمار فان بعض الكتبة والمؤرخين نسبوا زوال التي بذلك الحين الى تعريب فلسفة اليونان ومنهم المؤرخ المشهور ابو الفدا

وثمة عصر مجيد في تاريخ الامة العربية اضاء فيه التمدن سراجهُ الوهّاج وخلّد لنا نجومًا زاهرة في سماء التاريخ كابن باجه وابن الطفيل وابن زهر وابن رشد وموسى بن ميمون ويهوذا ابن يوسف من اسلام ويهود من اهالي المغرب وابن سينا والرازي وابي العلاء المعرّي وحنين ابن اسحق والكندي وبختيشوع وابي بشار السوري من مسلمين ونصارى من اهالي المشرق

وحبذا لو كان كل ملوك الاندلس منظورين على الميل الى العلم الصريح كما كان الحكم وغيرهُ من خلفاء بني امية وعبد المؤمن ويوسف من ملوك الموحدين. وقد نقل المؤرخ عبد الواحد الاندلسي رواية عن لسان احد تلامذة ابن رشد مأثورة شفاهًا عن استاذه يظهر منها فضل الامير يوسف احد ملوك الموحدين ونباهة افكاره وعلو مكانته في العلوم والآداب وهي بحذاها المعجم ومعناها المترجم "لما تخلت بين يدي امير المؤمنين التي مختليًا بابن الطفيل فطفق هذا الشيخ الجليل والنعم النبيل يطنب في عراقة حسبي ونسبي ويعلي مكان علمي وادبي وقد بالغ بالثناء كرمًا منهُ عليَّ ورِدًّا منهُ اليَّ فبعد ان سألني الامير عن اسمي ولقبي اقترح عليَّ سؤالاً اراعني فقال ما قول الفلاسفة في السماء هل هي عنصر ازليٌّ والاَّ فمتى كانت البداية فاجفلت عن الجواب زاعمًا ان ثمة دخيلة تحت الحجاب وانكرت علو اشتغالي بالفلسفة ومسائلها وشاكلها وما فطنت ان ابن الطفيل كان منتقًا معهُ على طرح السؤال عليَّ حتى افيض في التفصيل وانشط من العقال كل عنبل فلحظ الامير فلقني وحوّل وجههُ لابن الطفيل واخذ يحادثهُ وينقل اليهِ محصول الموضوع وعرض آراء ارسطوطاليس وافلاطون وغيرهما من الفلاسفة ثم قابلها بمعارضة علماء الكلام لاقوالهم

فوجد ثمة شديد المعارضة في البيان قوي المحافظة النادر مثالها في الاذهان وقد اورد امثلة وشواهد يقصر عن ايرادها فحول العلماء فاستمت من وحشي واطمأن جاشي فانطلق لساني من قيده وسرحت في تلك الميداء سوانح افكاري فقابلها بالبشاشة والانشراح وانعم علي بهبة ثمينة"

ونقل المؤرخ المذكور ايضاً ان ابن رشد لم يقدم على شرح ارسطوطاليس الا بايعاز ابن الطفيل وقياماً بامر امير المؤمنين يوسف وقد اورد ذلك في كتابه حيث قال "وبينما ابن رشد قاعد في داره اذ وردت له رقعة من خلو الوفي ابن الطفيل يقول له بها اجتمعت اليوم بامير المؤمنين وفي غضون الحديث شكا لي من عتادة تعريب كتب ارسطوطاليس وصعوبة مراسها وطموس معانيها وعمى او وجد شارح يبين منها ما اظلم ويحل ما تعقد منها ليسهل تعريبها للافهام فافتكرت ان لا احد اقدر منك على العمل ولا اجدر بذلك لانك ذو عقل خصب وفهم ثاقب يعيد المعاني قريب وجدّ لا يلهيه عن القصد شاغل وصدر لكل العلوم شامل وكنت احب ان انفق ما بقي من عمري في هذا التصنيف الجليل اولا خوفي من قرب الاجل فينقطع العمل وقد تجاوزت من عمري جلة وامسيت مجاور الفناء وشواغلي لدى الامير وفيرة تستغرق اناء الليل واطراف النهار"

ومما يدل على كرامة الفلسفة في الاندلس ما رواه ابن ابي اصيبعة عن احتفال الامير يعقوب المنصور بالله بابن رشد حين تنابلا بعد ظفر المسلمين في قتال الامير المذكور مع الفنش ملك قشتالة سنة ٥٩١ للهجرة فقد كان ترحاب الامير بالفيلسوف شبيهاً بتلاقي عشاق على اثر فراق

ولم يكن ابن رشد الوحيد بين اقرانه في نوال الكرامة والتحلة من معاصريه فقد كان جل الفلاسفة مغمورين بسوابغ نعم الملوك وآخذين بمجامع قلوب الاذكياء غير مغضوب عليهم بيان افكارهم الحرة في المسائل العقلية وكما اخذت ابن رشد حجة لاثبات كرامة الفلسفة في الاندلس اورد بعض اقوالهِ ايضاً لتكون آيات ناطقة عن حلم ذلك العصر المجيد وغوص عقول فلاسفته في لجج المسائل مهما كانت عميقة الغور بدون خوف ولا وجل مجردين العلم عن غيره في ابحاثهم مثلما فعلت عقول الافرنج في هذه الاعصر المتمدنة

وقد اثرت ابن رشد عن غيره لانهُ طائر الشهرة ذائع الصيت في الشرق والغرب بمقاطع الانبر ومذهب معروف في مدارس الغرب مدعو "اثرُ ويسم" وماهو الا مذهب ارسطوطاليس مفصلاً وموضحاً . قال في معرض افكاره عن الفضيلة "ومن الافكار المضرة قول البعض ان الفضيلة طريق يصل بها المرء الى السعادة كأن الفضيلة ليست امراً نافعاً في حدّ ذاتهِ ولا يختص بها الانسان ويزجر نفسهُ عن غيرها الا على امل المكافاة والجزاء فكأنهُ لم يعمل الخير للخير بل

ليكسب اجرًا مضاعفًا بالربا

وقال في كتابه الموسوم بتهافت التهافت يرد به على كتاب الغزالي الموسوم بتهافت الفلاسفة في معرض كلام عن البعث "قال ارسطوطاليس في آخر كتابه المسمّى التماسل والبلى ان الجسم متى بلي لا يصح عودهُ بالذات لكنهُ يعود على شكل ثانٍ من نفس تأليفهِ واني اصادق على قوله ولا اعارض الغزالي ومن حذا حذوهُ في قولهم عن خلود النفس لكي اواخذهم برجوع النفس الى عين الجسم الذي بلي واراى انها ترجع الى آخر شيء للاوّل لم يعتره فناء واني اظن واضع مذهب الصابئين اول من ارتأى بعث الانفس بعد فناء الاجسام وتلاهُ انبياء اليهود والنصارى ليقينهم بحسن عائدة هذا الراي على الاجتماع الانساني"

وقال في كتاب له عن رأي افلاطون في الحكومة الجمهورية "الظالم من يحكم لنفسهِ وليس للامة" وفي محل آخر "وقد كانت الخلافة العربية بالمبايعة خير الحكومات ولو لم تنحها معاوية وبستبدلها بخلافة بني امية الوراثية لتمكنت اصولها ولم يتذرع بنيان الدولة العربية — وفي كلام عن النساء "حالتنا الراهنة تحجبنا عن اخلاء جواهر النساء تكاهنّ ما خلقنَ الاّ للولادة والارضاع ولقد فقدنَ القوى النافعة في عقولهنّ كما يصدأ الحسام اذا لبث مغمدًا ابدًا. ألا ترى الامرأة عندنا حملاً على عاتق زوجها لا نعينهُ على قيام اودهِ ولا تخرج من تحت الحجاب فهي كزهرة في وعاء تتعلف لريحها الطيّب والرجل معرض للكفاح مستهدف لسهام المنايا فالرجال تنقص والنساء تزيد"

وقال في كتاب له في الطبيعيات "كما يعتاد مرءٌ على تجرع السم فلا يؤثر بوجه الله فتال لغيره كذلك حكم العادة بهِ في انحال الاوهام فالعامة اعتادت تلقي الكلام المنزل سواء كان معقولاً او غير معقول لكن الفلاسفة يتعودون التبصر والتفكر واحيانًا تكون نتائج القياس مبطلة مقدمات القضايا المسموعة فيضعف يقينهم لتضارب السلب بالايجاب"

وقال في كتاب له في ما وراء الطبيعة "مذهب الفلاسفة البحث بالموجود واي عبادة خير من عبادة الخالق بالتأمل في مصنوعاتهِ والبحث في غرائب مخلوقاتهِ ألا يسمي المتأمل مفتونًا بحسن بدائعهِ عابدًا بخشوع قدرتهِ العظيمة على تنظيم الخليقة

فهذه فرائد من عقود افكار ثمينة ينبئ ضياؤها عن قوة ذلك العصر الذي وجد فيهِ الفكر الحرّ بين الامة العربية نصيرًا واعار نظّارتيهِ لعيون العقل فطرح الغشاء وغدا بصيرًا يقول بلسان حالهِ لا عاقلهُ والخلق "الراحة بنت التمدن. التمدن ابن العقل. العقل لا يلد ما لم يتحرك. لا حركة للعقل اذا كان مقيدًا. قيد العقل الاوهام. اخلعوا الوهم فتلبسوا العلم وترفلوا بالحضارة